النخبة السياسية العراقية بين المعاذير وأمل التغيير

أثير عادل شواي

ليس ثمة اكثر من معاذير المسؤولين العراقيين التي يبررون بها تواصل ما يعاني منه العراق من مشكلات باتت مستعصيه عن حلولهم ، فالإرهاب لا سبيل للتصدي له مع تواتر مصادره ، وتنوعها : من منظمات تكفيرية ، ومخابرات دول الجوار ، فضلاً عن دعم عدد من القوى داخل العراق ، ومنها ما يسمى ببقايا النظام البعثي ، ويضاف إلى جميع ذلك حدود العراق المفتوحة على مصراعيها ، وقلة عدد القوات الأمنية العراقية ، وضعف تجهيزاتها ، وليس من المعقول بطبيعة الحال أن تتصدى هذه القوات الفتية ، قليلة الخبرة لكل تفانين الأرهابيين والمسلحين ، في القتل ، والتفجير، وأنى لها أن تقف بمواجهة الإنتحاريين، والسيارات الملغمة ، والعبوات الناسفة ، والإغتيالات ، بالرصاص ، والسيوف وسواهما ، إلى غير ذلك من عمليات الخطف ، والسلب ، والتخريب . وعلى الرغم من ذلك- يقول المسؤولون العراقيون –فإن الجهود مستمرة حتى تستكمل القوات العراقية جاهزيتها، وتقهر الإرهاب .

وعلى هذا النحو يتابع المسؤولون العراقيون إيجاد عشرات المعاذير للمشكلات الأخرى : وجود القوات الأجنبية في البلاد ، والنقص الحاد في الخدمات، وضعف البنى التحتية ، والبطالة ، والتضخم ، وعدم وجود مشاريع أعمار ، والفساد الإداري ، إلى آخر قائمة ليس أطول منها سوى معاذير ومبررات مسؤولينا .

وبوجود جميع هذه المعاذير يواصل المسؤول مهامه ، مكتفياً بالسير ضمن الخطوط العامة المتفق عليها مع القوى الكبرى المؤثرة العراقية وغير العراقية ، مسافراً حيناً إلى بعض المحافظات على نحو خاطف ، أو متجولاً بين مدة وأخرى بين عدد من العواصم ناثراً كلمات تكاد تبلى من كثرة الإستخدام : الديمقراطية ، والشفافية ، ومكافحة الإرهاب ، وإعادة الإعمار ، وتحقيق طموح العراقيين ، والعراق الجديد .

وأمام الظروف الإستثنائية القاهرة التي لا بلاغة تعدل بلاغة المسؤول العراقي في تصويرها بمختلف الصور والأوضاع نسأل : ما الحلول الإستثنائية التي وضعها أو يفكر بوضعها المسؤول العراقي لمواجهة هذه الظروف الإستثنائية أو بعضها في الأقل؟ .

إن من ما نتصوره مفروغاً منه هو أن يمتاز السياسيون بعضهم عن بعض بإبتكارهم لطرائق ، وأساليب خاصة ، في مواجهة الأزمات ، وأن من المفترض أيضاً أن الظروف غير المؤاتية كلما ازدادت ضنكاً برزت الحاجة لدهاء السياسيين ومكرهم في قهر هذه الظروف ، وتقاس قيمة السياسي بقدرته على تجاوز الصعاب ، وتذليل العراقيل لتحقيق مصلحة الوطن والمواطن على حد سواء .

ماذا يملك مسؤولونا وساستنا من صيغ الإبداع والإبتكار في إيجاد الوسائل والطرائق التي تفضي إلى تخطي الأزمات ، وخلق البدائل ، على نحو يتسم بالخبرة والدهاء والحنكة السياسية؟ . لقد كشفت المدة من التاسع من نيسان إلى الآن أن معظم النخبة السياسية العراقية ليس لها حظ في واقع الأمر من جميع ذلك . بل أن منهم من يكشف كلامه ومواقفه عن قراءة مغلوطة للواقع العراقي . ونجد الكثرة الكاثرة لساستنا تنخرط في تصريحات ومواقف تنحصر في تراشق الإتهام ، وإثارة الطائفية . ويغلب على معظم أقوالهم التذبذب في الرأي ، ومحدودية الأفق ، والسذاجة في بناء التصورات ، وصياغتها . بل إن منها ما يوضح لك بجلاء أن تشخيص الأخطاء ، ومن ثم معالجتها ؛ لأفتقارها إلى الخبرة ، ولإنعزالها عن الشعب ؛ فالساسة إما جاؤا من المنفى بعد غيبة طويلة أفقدتهم على نحو كبير صلاتهم مع هموم المواطن ، والتغييرات الكبيرة التي طرأت عليه وقت غيبتهم على جميع الصعد . وإما انطلقوا من الداخل بإرهاصات الإنعزال وقد انعكس عليهم ظل الدكتاتورية من جهة – ولا أنزه من ذلك من كان في الخارج، وكانوا من جهة أخرى خلواً من أي خبرة سياسية لا يمتلكها بالضرورة سياسيو الخارج .

وعلى هذا النحو لا يبقى ثمة أمل بهذه النخبة التي يبدو أن سوء طالع العراقيين في المقدمة في لحظة عصيبة من تأريخ العراق . هذه النخبة التي فرّخت عشرات النواب الذين لم تضع الهستيرية الطائفية أمام المواطنين خياراً إلا إختيارهم من دون أن يعرفوا واحداً منهم .

وإذا كان الأمل مفقوداً بهذه النخبة وإنتاجها فإنه ما زال معقوداً بنخبة أخرى في قيادة العراق نحو ما يستحقه هو وبنوه من مكانة ، وتنتشله من ما يحيط به من مخاطر ليس أقلها الطائفية ، والرجعية ، وعودة البعث . هذا الأمل معقود بالطبقة الوسطى العراقية ، التي لا بد أن تنهض من كبوتها سريعاً وتبدأ بالتعرف على نفسها ، والثقة بقدراتها لتخرج قياداتها التي تدافع وتطالب بمصالحها ، التي هي مصلحة العراق بالضرورة ، وفي هذا الوقت بالذات سوف تبدأ بنية الفكر السياسي، والحياة السياسية في العراق بالتغير ، ومعهما ما يلبث الإقتصاد والمجتمع العراقيين بالتغير .

إن هذا التطور للطبقة الوسطى يحتاج لاريب إلى وقت بعد كل ما لحق بالبرجوازية العراقية من دمار ، وهنا تترتب على طليعة هذه الطبقة التي تنهض من رماد الحروب والحصار مسؤولية تأريخية في أن تسهم في تقليص هذا الوقت بأكبر قدر ممكن ، فهذه الطليعة التي لا تنحصر بالمثقفين الكلاسيكيين الذين يواصلون رقدتهم الطويلة فى مبنى إتحاد الأدباء في بغداد . بل بالشباب الواعي الذي ما عقم العراق من أن إنتاجه يوماً ، أقول على هذه الطليعة أن تعمل على المساعدة في إنضاج الوعي السياسي للبرجوازية العراقية ، وتشجيعها على الخروج من قمقمها لا للمشاركة في العمل السياسي ، أو طرد النخبة السياسية الحالية من المواقع التي استحوذت عليها ، وإلغاء ما ترتب على إجراءاتها بل القيام بما هو أهم ، القيام بالأمر الوحيد الصحيح : إعادة خلق الواقع ، والمفاهيم ، والأوليات، ورسم ملامح جديدة لحياة جديدة لإنسان جديد لا يرضى بأقل من الحقوق التي يتمتع بها نظيره في العالم المتمدن .

معضلة وكالة الأمن القومي العلنية

الكثير من الأحاديث والقليل جداً من مفاتيح ألغاز ثرثرة الإرهابيين

بقلم : مايكل هيرش
ترجمة : هاجر العاني

في أية حرب تكون مراقبة العدو أمراً خطيراً ، واليوم – بنظر بعض الامريكيين على الاقل –أصبحت المراقبة نفسها هي العدو.لم يكن الامر على هذا النحو دائماً ، فكما يعلم أي خبير في عمل الاستخبارات كان بعض أبطال الحرب العالمية الثانية من المسترقين للسمع وليس من الجنود ، وكانوا رجالاً هادئين كأولئك الذين راقبوا وحلّوا شفرات الاتصالات النازية الخاصة بخطط المعارك الالمانية في بليتشلي بارك ، وهو مبنى يقع على بعد ٥٠ ميلاً شمال شرق لندن ، فعمليتهم عالية السرية وظفت الآلاف الذين تنصتوا الى ٢٢٦ ترداداً لاسلكياً لرسائل مشفرة بالنقطة والشَرطة ونقلوها الى الحاذقين في حلّ الشفرات وكانت النتائج التُحفظ على بطاقات ابعادها VXOانج في حاويات كعُلب الاحذية.

مَن هم أساتذتنا في المراقبة اليوم ؟ معظمهم مستقرون في وكالة الامن القومي، في مجمع "كريبتو سيتي (المدينة الخفية) " العملاق الواقع على الطريق ٩٥ بين ولايتي واشنطن وبالتيمور، حيث تسحب الوكالة نحو ٦٥٠ مليون خط يومي - تُسمى استخبارات الاشارات أو sigintاختصاراً –من الاقمار الصناعية والمحطات الارضية والطائرات والسفن حول العالم وكذلك تفتش عن نماذج قد تضفي مغزى على ما يبدو على الكلمات العادية في الحرب على الارهاب.

ولكن لا يُنادى بالوكالة وخبرائها كأبطال في الوقت الحاضر، فالوكالة المتكتمة للغاية –بحيث ان القول الشائع هو أن رسائلها تمثل الوصف " لا مثيل للوكالة " –أصبحت في دائرة الضوء بشكل ضايقها في الاسابيع الاخيرة بعد ان كشفت صحيفة النيويورك تايمز عن انه نتيجة لأمر رئاسي كانت الوكالة تراقب آلاف الامريكيين من خلال الهاتف والبريد الالكتروني دون تفويض من المحكمة بذلك.

وفيما يحتدم الجدال حول شرعية ولياقة المراقبة الداخلية التي تقوم بها الوكالة، لم يُطرح سؤال طرحاً وافياً مفاده: هل ان طريقة وكالة الامن القومي هي حقاً أفضل سبيل لتعقب الارهابيين ؟ ففي حين انه ليس ثمة شك في ان خطوة الوكالة العلنية باتجاه المراقبة الداخلية تثير قضايا قانونية وأخلاقية خطيرة، يكون السؤال المهم بنفس الدرجة هو فيما اذا كانت اساليب الوكالة –بعد ٤ سنوات من ١١ / ٩– مناسبة لتعقب الجهاديين.

اما الفرق بين بليتشلي بارك وكريبتو سيتي فله علاقة كبيرة بطبيعة المهام المختلفة للغاية مع الطريقة التي يُنظر بها لتلك لمهام، وبمعايير الوقت الحاضر كانت المهمة في بليتشلي بارك محددة تحديداً جيداً، اما اهداف المراقبة فكانت واضحة، الا وهي القيادة العليا الالمانية وخدمات الاستخبارات، وكان لدى جامعي الاشارات تحديد جيد لماهية الاتصالات التي يراقبونها، اما أكبر تحد فكان يكمن في حلّ شفرة اينجيما المعقدة تعقيداً شديداً.

عند المقارنة فأن الوكالة تدير مراقبة واسعة القاعدة بشكل غير مقيد على خطوط الاتصالات التي لم يعد يستخدمها الا القليل من الاشرار، إن عملية الوكالة الواسعة المسماة " إذن في السماء " –تتمتع بقدرات تجعل مؤسسة بليتشلي بارك اثناء الحرب العالمية الثانية تبدو أصغر ولكنها لا تلتقط الكثير لأن جماعات أذكى الارهابيين كفُّوا منذ زمن طويل عن التحدث عن خططهم عبر الهواتف الخلوية أو الخطوط الارضية –أو في نطاق أنهم فعلوا ذلك فمن المرجح أن هدفهم هو نشر معلومات مضللة – واليوم ليس التحدي هو حل رموز رسالة تم اعتراض سبيلها من عدد معلوم بل انه اكتشاف ما هي رسالة وماهي ليست كذلك ومَن يكون العدو؟

لقد تم اعداد الوكالة لمراقبة عدد مُحتوى نسبياً من سبل استقاء الاتصالات الرسمية في الدول الأخرى – على سبيل المثال ارسال المايكروويف من موسكو الى قاعدة صواريخ بالستية عابرة للقارات في سيبريا-لكن وكما أخبرني مايكل هايدن –مدير الوكالة في حينها –في مقابلة معه أواخر عام ٢٠٠٢ قائلاً " لقد انتقلنا من تتبع بنية الاتصالات لدولة أممية بطيئة التحرك وأدنى منا تكنولوجياً وضئيلة الموارد – وقد استطعنا عمل ذلك بشكل جيد جداً –الى تتبع بنية اتصالات يستطيع فيها عضو القاعدة التوجه الى واجهة محل في اسطنبول وشراء جهاز اتصالات بـ ١٠٠ دولار والذي من المؤكد انه يفي بالغرض والذي من أجله لا يتوجب عليه الاستثمار من أجل التنمية ".

والنتيجة ان ملايين المكالمات الهاتفية واتصالات البريد الالكتروني تُغرق الوكالة بحيث لا يمكنها ببساطة استيعابها، والأمر ليس مجرد مسألة العثور على الابرة في كومة القش، فاليوم محترفو المراقبة ليسوا متأكدين من شكل الابرة، والوكالة –مع انها استمرت بأداء ما يعتبره بعض الخبراء بدائياً –عدّلت التقنيات واسعة القاعدة مثل بحث الكلمة الدليليّة (وهي الكلمة التي تساعد على تفسير أو حل شيء مجهول) العشوائي عن شعارات الاسلاميين على الشبكة الدولية (Web)، وكما أشار تقرير صادر في كانون الاول من عام ٢٠٠٢ عن لجنة الاستخبارات المنتقاة من مجلس الشيوخ بأنه" جزء ضئيل فقط من الرسائل المعتَرضة يومياً في الواقع يعيد أناس النظر فيها والكثير مما يتم جمعه يضيع في غمرة المعلومات ".

وعلاوة على ذلك يقول أحد موظفي الاستخبارات ان الاتصالات بين الجماعات الارهابية في الوقت الحاضر هي أما " متسربة عبر الهواء " –والتي فيها يسلم المراسل الوثيقة او قرص الكومبيوتر باليد (كما شوهد في الرسائل المزعوم انها متبادلة بين نائب رئيس القاعدة أيمن الظواهري وقائد المتمردين في العراق أبي مصعب الزرقاوي)- او انها تتم من خلال مواقع الانترنيت. اما بعض خبراء الاستخبارات المنتقدين لجهود وكالة الامن القومي –مثل جون أركويللا الذي يعمل في المدرسة البحرية للدراسات العليا في مونتيري بكاليفورنيا ومستشار سابق في البنتاغون –فيقولون ان المعضلة الحقيقية هي ان الوكالة ما زالت تتبع ستراتيجية حقبة الحرب الباردة.

وما يتطلب فعله من وكالة الامن القومي حقاً –كما يقول أركويللا وآخرون –هو تأسيس بليتشلي بارك جديدة، وتماماً كما اجتذبت بليتشلي آلآن تورنغ –مخترع الكومبيوتر الحديث –تحتاج الوكالة الى استدعاء أمثال تورنغ المعاصرين –وبالدرجة الاولى قراصنة الكومبيوتر –للايقاع بالقاعدة والارهابيين الآخرين في المكان الوحيد الذي ما يزالون يتواصلون عبره ألكترونياً... وهو مواقع الانترنيت، ويضيف أركويللا انه ثمة فائدة مضافة قائلاً " اذا واصلنا طريقنا في التأكيد تأكيداً أكثر لجمع الاستخبارات على الشبكة الدولية الانترنيت فسنعلم أكثر ونتطفل أقل على الحريات المدنية ".

اما بروس هوفمان –خبير بشؤون الارهاب في شركة راند –فقد أشار الى ان أغلب الاختراقات الكبرى ضد المؤامرات المرتبطة بالقاعدة خلال السنوات الاخيرة قد أظهرت ان الارهابيين –الحذرين من المراقبة على الهواتف –يتواصلون من خلال سعاة على الارض وينسقون مؤامراتهم على الانترنيت، فعندما ألقي القبض على محمد نعيم خان –المستمع بحماية خالد شيخ محمد –وذلك في تموز عام ٢٠٠٤ كان كومبيوتره المحمول يضم خططاً لهجمات متزامنة على لندن ونيويورك والتي كان يجب ارسالها الكترونياً، ويضيف هوفمان بأنه في الوقت الحاضر تعلم أكثر الارهابيين تطوراً كيفية التملص من وكالة الامن القومي تملصاً تاماً و " انهم يحتفظون برسائلهم في ملف مسودة على موقع على الانترنيت ثم يعطون كلمة المرور واسم المستخدم لشخص ما ليتمكن من الدخول ووكالة الامن القومي لا يمكنها تعقب ذلك لأنه ثابت (غير قابل للنقل)".

ويطرح موظفو ادارة بوش الآن الحرب على الارهاب على انها قتال ضد خطط القاعدة لأعادة تأسيس "خليفة" على العالم الاسلامي، رجوعاً الى امبراطورية المسلمين من قرون مضت، ويسخر بعض الخبراء من طموحات كهذه للاسلاميين ولكن الى حد ما تناقش الجماعات الاسلامية المتطرفة الاحلام بوجود خليفة، وهذا يحدث بالدرجة الاولى على مواقع شبكة الانترنيت كما يقول الخبراء، فقد ذكر جيللس كيبيل وهو مستعرب بارز وأستاذ في معهد الدراسات السياسية في باريس لصحيفة النيويوركر في عام ٢٠٠٤ ان

"الانترنيت هو القضية الرئيسية " وأضاف " انه يسمح بأنتشار معيار عالمي، مع نظام انترنيت الشريعة والفتوى ".

وحتى الموالين لوكالة الامن القومي يسلمون بأن كريبتو سيتي هي في بعض الأوجه عبارة عن ديناصور –بل وديناصور مكلف للغاية –ففي حين تبقى أرقام ميزانية وزارة الدفاع "معتمة" أو محظور الاطلاع عليها، يقول أحد مقاولي تلك الوزارة، وهو متهم بالاطلاع على بيانات الميزانية، (يقول) بأن تعقب وكالة الامن القومي التقليدي يستهلك الكثير من ميزانية جماعة الاستخبارات البالغة نحو ٤٠ مليار دولار سنوياً، بينما تستهلك الجهود التي تركز على الانترنيت جزءاً ضئيلاً فقط من تلك الميزانية، غير أنه من الصعب العثور على مواقع الانترنيت تلك والدخول اليها لكن الجهود كشفت النقاب عن جماعتين ارهابيتين مجاور صحارى افريقيا (دمرتهما في النهاية).

قد يكون تجاهل مواقع شبكة الانترنيت أمراً مكلفاً، فبعد تفجيرات قطار مدريد في ١١ آذار عام ٢٠٠٤ مباشرة قبل الانتخابات الاسبانية اكتشف نرويجي ذو عقلية جبارة –وهو فورمفاريتس فورسكننغسنشتات – وثيقة تضم خطة اسلاميين على موقع مغمور على الانترنيت، والتي قد تكون أعطت اشارة بالهجمات في وقت سابق حيث تقول الوثيقة " من الضروري الاستفادة استفادة قصوى من الانتخابات العامة المقبلة في اسبانيا في آذار من العام المقبل ونعتقد أن الحكومة الاسبانية لا تستطيع احتمال أكثر من هجومين –أو ثلاثة كحد أقصى – وستضطر بعدها للانسحاب (انسحاب قواتها من العراق) نتيجة للضغط الشعبي ".

وتقول وكالة الامن القومي وموظفو الاستخبارات الآخرون انهم يفعلون ما بوسعهم للتغلب على المشكلات والمصاعب وأن الجمهور يسيئون فهم ماهية عمل الوكالة، وفي موجز للانباء أذيع في أواخر كانون الاول عقب شيوع قصة المراقبة الداخلية أصر هايدن – الذي يشغل الآن منصب نائب مدير الاستخبارات لكنه كان رئيس وكالة الامن القومي عندما فوضها بوش بالقيام بالمراقبة الداخلية) –أصر) على ان وكالته تستهدف بدقة أحاديث معينة مستندة الى الاستخبارات وقال " ما نتكلم عنها هنا هي الاتصالات التي لدينا كل الاسباب للاعتقاد بأنها اتصالات القاعدة ويكون أحد أطرافها في الولايات المتحدة ولا يمكننا تبديد الموارد على أهداف لا تزودنا ببساطة بمعلومات قيمة".

ويصر موظفو الوكالة الآخرون على أنهم يتحركون بأتجاه اعادة توجيه مجمل الوكالة، فطبقاً لما ذكرته ناطقة بأسم الوكالة –والتي اشترطت عدم ذكر هويتها في الاجواء المتكتمة للوكالة –بأن الوكالة بدأت حملة عام ٢٠٠٤ لتجنيد حوالي ٧٥٠٠ موظف جديد خلال السنوات الخمس، ومن بينهم سيكون هناك تقريباً ٣٥٠ عالم كومبيوتر بالأضافة الى المهندسين ومحللي اللغات وعدد كبير من محللي الاشارات والمتخصصين بوضع الشفرات والمتخصصين بالرياضيات، لكن اركويللا يقول ان الكثير من أفضل الناس –وبعضهم من قراصنة الكومبيوتر غير المشروعين –لا يمكن ببساطة التدقيق في امرهم من خلال عملية تصفية الامن الحالية.

وبينما تقوم شبكة استخبارات أمريكا بأعادة التنظيم –اذ استحدث بوش في العام الماضي مديراً جديداً للاستخبارات القومية –يقلق بعض الخبراء من كون هذه الجهود لا تزال هامشية، فلا تجري الآن اعادة التفكير الاساسية من النوع الذي سيعيد تقنين بعض من تلك المليارات من الدولارات من المراقبة العالمية للوكالة الى استخبارات أكثر انسانية والى مراقبة الانترنيت.

وقد يكون ممكناً للوكالة أن تدير قانونياً مراقبتها المستفحلة، بيد أن حل مسألة الحريات المدنية لا يتعدى كونه نصف معضلة الوكالة، حيث يقول روبرت هوليداي –خبير كمارك أمريكي طور برامجيات كومبيوتر للتعرف على هوية الارهابيين يتم استخدامها الآن على نطاق واسع) –يقول) انه ما زالت للاشرار الافضلية عندما يتعلق الامر بالاتصال دون ذكر أسماء وبسرية، كما يؤكد قائلاً " لن أقلق على الأخ الأكبر، اذ أنه توجد الكثير جداً من المعلومات لتعقبها عبر الاتصالات "، وأمريكا بحاجة لإيجاد طريقة أفضل لفعل ذلك.

عن :الواشنطن بوست